التعالق النصي فِي رباعِيَاتِ عبد الرحمَنِ المَجدوب

د. بوسغادي حبيب
أستاذ محاضر(أ)، المركز الجامعي عين تموشنت – الجزائر
البريد الالكتروني: habibalii15@gmail.com

تاريخ الإيداع:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2019-03-27	2019-05-07	2019-06-01

الملخص:

نحاول في هذه الورقة البحثية أن نسلط الضوء على رباعيات الشيخ المجدوب من خلال تعالقها مع نصوص أخرى؛ سواء كانت هذه النصوص قرآنا أم حديثا أم شعرا أم حكما وأقوالا، حتى نتعرف أكثر على الدلالات والرموز المخبوءة تحت هذه الروائع الموشاة باللسان العامي الجميل.

إنّ الأمثال والحكم والأقوال من حيث كونُها حصيلة لتجارب الأمم، لابدّ أن تتشابه بتشابه التجارب[1] التي تمر بها الأمم، كما أنها تنتقل من جيل إلى جيل، بل من شعب إلى آخر، ومن بلد إلى بلد، ومن منطقة إلى أخرى.

وقد عُنيت معظم الشعوب بجمع أمثالها، وتدوين حِكَمِهَا، بل وتقنين البعض منها في صيغة قاعدة قانونية أو في شكل عُرْفٍ من الأعراف المعمول بها.

لقد وقع الاختيار على شيخ من شيوخ المغرب العربي الذي ذاع صيته في الآفاق وخاصة في بلدان المغرب العربي، إنّه عبد الرحمن المجذوب.

الكلمات المفتاحية: التعالق؛ الشيخ المجدوب، الدلالة؛ النصوص؛ الأمثال.

The Hypertextuality In Quartets Of ABD ELRAHMAN ELMAJDUB

Research Summary :

In this paper we try to know the poetry of ABDELRAHMAN El MAJDUB through The relationship between his poetry and other texts, whether these texts are from the Koran or poetry or proverbs or prophetic Hadith, So that we can recognize the various signs of deep in his beautiful public poetry.

The proverbs and sayings are the experiences of peoples and nations they are transmitted from generation to generation, from people to people, from country to country and from region to region.

The nations took care of all proverbs and sayings and record their experiences; they even made it legally work.

I have chosen of Abdel rahman Elmajdub, Known in the Eastern and Western popular circles, Especially the Maghreb countries.

key words : *Intertextuality ; Sheikh ElMajdub ; Semantics ; Texts ; Proverbs*.

تمهيد:

لعل أروع اختصار للتجربة الإنسانية هو ذاك الذي تنطوي عليه حكمة أو يرويه مثل، فهما أشبه بمرآة تعكس حياة الإنسان ومسيرة مجتمعه، والعبر التي استقاها الإنسان عبر حقبة طويلة من الزمن، حتى درج على تَرْدَاد الاستشهاد بمضمون الحكمة أو المثل في مناسبات متشابهة، وهكذا يعتبر المثل أو الحكمة أو القول المأثور مؤشرا على مخزون حكمة الأمة، ومستودعا من مستودعات فولكلورها الخاص، ومَعْلَمًا من معالم ثقافتها المميزة، وذاكرة جماعية للشعوب والأفراد.

ارتأينا بعد هذه التوطئة المختصرة أن نضع بين يدي البحث سيرة ذاتية للشيخ المراد معالجة رباعيته

أولا / التعريف بالشيخ المجذوب[2]:

هو الشيخ أبو زيد سيدي عبد الرحمن المجذوب بن عياد الصنهاجي الأصل ثم الفرجي الدكالي، عرف بالمجذوب، شاعر صوفي مغربي، الكثير من قصائده وأمثاله الشعبية متداولة في جميع أنحاء بلاد المغرب العربي، ترك من الأزجال ذخيرة لا تعدّ ولا تحصى خاصة منها ما يعرف (بالرباعيات) التي لا تزال تحتفظ بها الذاكرة الشعبية إلى عصرنا هذا وتتغنى بها بعض الطوائف ورجالات المتصوفة.

ينحدر من أسرة كبيرة معروفة بالخير والصلاح، التي كانت تقطن ببلدة أزمور، رحل هو ووالده إلى نواحي مكناسة ليسكن بها فيما بعد، وكان دائم التنقل بين القرى والمداشر ناشرا العلم والمعرفة إلى أن حل به مرض عضال وتوفي على إثره سنة 976هـــ، ودفن بمكناس.

ولقب المجذوب أطلقه عليه أهل زمانه، وبقي معروفا به إلى وقت الناس هذا، وتذكر كتب التاريخ أنّ هذا الشيخ كان له أولاد وزاوية يطعم فيها الطعام للواردين عليها وعابري سبيل، وكان يجري على لسانه كلاما موزونا وملحنا يأتي على نسق أهل الشعر وأوزانهم الشعرية، ويحفظ الناس كثيرا منه ويتبادلونه بينهم في مجامعهم وأذكارهم.

تتألف أشعار المجذوب من مصراعين مقفيين، في لغة ليست فصيحة ولا عامية وإنما هي جمع بينهما عرِفت بالشعر الملحون، وقد باتت هذه الأشعار يتغنى بها المغنون والمتسولون، وتُتَنَاقل في الدروب وداخل الدور، ويعرفها المثقفون والعوام على حدّ سواء، وهي تعتبر جزءا من ميراث روحي وثقافي لمنطقة شمال إفريقيا، كما هي أشعار عمر الخيام[3] جزء من التراث الفارسي.

ولهذه الأقوال فائدة كبيرة، فهي ناتجة عن تجارب دنيوية ومعاملات مع الناس، كما أنها جزء مهم وثروة من جملة التراث الأدبي العامي المغاربي، وكان الشيخ يردد هذه الأمثال من أجل ألا يحرم غيره مما جرّب وتعلّم من حوادث زمانه، وكان يلقي هذه الأمثال في المناسبات للتربية والتعليم والنصيحة والموعظة الحسنة، وارتأينا قبل أن نعرّج على دراسة بعض من هذه الأقوال أن نقدم بين يدي البحث تعريفا وجيزا حول فن الزَّجَل.

ثانيا/ تعريف الزَّجَل (الشّعر الشّعبي أو الشعر الملحون):

جاء في لسان العرب أنّ" الزجَل بالتحريك اللعب والجلبة ورفع الصوت وخُصّ به التطريب، وأنشد سيبويه: لَهُ زَجَلٌ كأنه صوت حَادٍ..إذَا طَلَبَ الوَسِيقَةَ أَوْ زَمِيرُ

وفي حديث الملائكة: لهم زجَلٌ بالتسبيح أي: صوت رفيع عال، وسحاب ذو زجَل أي ذو رعد، وغيث زجل: لرعده صوت ونبت زجل: صوَّتَتْ فيه الريح، قال الأعشى:

..... كَمَا اسْتَعَانَ بِرِيحٍ عِشْرِقٌ زَجِلٌ.

والزّجلة صوت الناس، أنشد ابن الأعرابي:

شَدِيدَةُ أَزّ الآخرين كَأَنَّهَا ... إذا ابْتَدّهَا العَلْجَانُ زَجْلَةُ قَافِلِ

حيث: شبه حفيف شخبها بحفيف الزجلة من الناس [4]

يقول إميل بديع يعقوب في موسوعته:" الزجل أو الشعر الشعبي هو شعر ينظم بلغة العامة ولهجة كلامهم فلا تراعى فيه قواعد الإعراب، ولا الصيغ الصحيحة الكلمات، بل ينظم من الكلام العامي الدّارج..والشيء الأكيد أنّ العرب في الأندلس عرفوا هذا النوع من الشعر فنظموه وكتبوا فيه الدواوين"[5] .

وأما أوزانه فمنها ما هو على بحور الخليل، ويسمى الشعر الزجلي، ومنها ما هو خارج على بحور الخليل، والظاهر أنّ أوزان الزَّجَل تطورت من الأوزان الخليلية، يقول صفي الدين الحلّي:"وأول ما نظموا الأزجال جعلوها قصائد مقصّدة وأبياتا مجردة في أبحر عروض العرب بقافية واحدة كالقريض، لا يغايره بغير اللحن واللفظ العامي، وسمّوها القصائد الزّجلية، فإذا حكم عليهم لفظة معرّبة، غالطوا فيها بالإدماج في اللفظ والحيلة في الخط، كالتنوين فإنهم يجعلون كل منون منصوبا أبدا، ويكتبون اللفظة بمفردها مجرّدة من التنوين، وبعدها ألفا ونونا، مثل أن يكتبوا (رجلا) على هذه الصورة (رجل ان) وكالمد فإنهم إذا اضطروا إلى لفظة (إحياء) كتبوها (إحياي) ولفظوا بها كذلك"[6]

والزجل أنواع عديدة تختلف باختلاف المناطق والأمصار "فالعراقيون ينظمون فيه (القوما) و(الكان وكان) و(البغدادي) و(الأبوذية) و(العتابا) وينظم اللبنانيون فيه (العتابا) و(الميجانا) و(القرّادي) و(الموشّح) و(القصيد) و(الشروقي) وينظم المصريون (الحجازي) و(الحماق)[7]

ومثال ما ورد من الشعر الشعبي (الزجل) قول الشاعر[8]

جَانِي البَرْغُوثْ وَانـــَا نَايَمْ ... وْصَارْ عْلَى جَسْمِي حَايَمْ
وْقَالْ لِي شْهَرْ وَانَا صَـــايَمْ ... بَحْسَابِي خِلِصْ رَمْضَـــانْ
قُلْتْ: يَا بَرْغُوثْ لاَ تْجَاذَبْنِي ... عْلاَمَكْ إِنـــْتَ مْرَاكَبْنِـــي
بَاللَّهْ عْلِيكْ لاَ تتـــاعبْنِـــي ... أَتْرُكْنِي أَنَـــــا تَعْبـــَانْ
قَلْ لِـــي أَنَا مَانِي يْهَمَّـــكْ ... لاَ أَسرّكْ وَلاَ أَغَمّـــَكْ
عْشَايَ الليلَة مَنْ دَمَّـــــكْ ... وَالْغَدْ يْفَرَّجْهَا الرَّحْمَـــانْ
قُلت لَهْ: أَنَا أَرَاعِيـــــكْ ... وْعَنْدْ النَّاسْ أَنْشَدْ فِيـــكْ
رُوحْ لْغِيـــرِي تْعَشِّيـــــكْ ... وتْرُكْنِي اللِّيلَـــة نَعْسَانْ

ثالثا/ التعالق النّصّي في شعر المجذوب:

سنتناول في هذا العنصر بعضا من رباعيات المجذوب، والذي تناول من خلالها الشيخ أمورا شتى متعلقة بشؤون حياة الناس، فنراه قد تطرق إلى قضية المرأة وتناول جانبا من جوانبها، كما عرّج إلى تناول أمورا أخرى على غرار بعض الصفات

المشينة والحسنة من مثل: البغضاء والشحناء، الكسل، التأني والسرعة، المكر والخداع، الحكمة، الدنيا، الصبر، السر، السكوت، وما نقصده هاهنا من مسألة التأثير والتأثر الواردة آنفا هي أنّ ما ورد في شعر المجذوب من الأقوال والحكم البالغة المسرودة بالعامية نلفيها أيضا واردة في تراثنا الأغر من قرآن وحديث وشعر، ومن هنا أمكننا القول أنّ المجذوب لم يكن بدْعا في تناول تجاربه، بل هناك من سبقه إلى ذلك – وما أكثرهم– وتكمن جِدّةُ الشيخ فقط في تلك الصياغة المحبوكة التي صاغ بها رباعياته في قالب عامي يفهمه كل من يقرأه أو يسمعه.

وأول ما سنتناوله هو المرأة في رباعياته.

1/ المرأة في شعر المجذوب:

ما سنورده من رباعيات منسوبة للمجذوب تتعلق بالمرأة وشؤونها، نجد أنّ الشيخ كثيرا ما يحذرنا من النساء، من سلوكاتهم وتعاملاتهم، وهذا الأمر لا ينطبق على جميع النسوة، بل هناك منهن الصالحات القانتات العفيفات الطاهرات، وهو إذ يتعرض لهن في كتابه فمثلهن مثل الرجال، لأنه تناولهن على حدّ سواء، فلا يخطر ببال أحد أنّ للشيخ غرض سيء بهنّ أو إغراء وتحريشا عليهن، وعلى كلّ حال فإنّ الكل هاهنا المراد به الجزء (البعض).

يقول الشيخ:

سُوق النّسَاء سُوقْ مَطْيَـــــارْ ... يَا دَّاخَلْ رُدْ بَالَكْ

يورِّيوْ لَكْ مْنَ الرَّبْحْ قُنْطَارْ ... وَالدَّرْكْ رَاسْ مَالـــــكْ

يحذرنا الشيخ في هذين البيتين أنّ النساء مثلهن مثل السوق، كان لزاما على داخله أن يكون حذرا فطنا وعلى بصيرة من أمره، لأن فيه الربح والخسارة، وكذلك النساء يظهرن هذا الغرر، بأنهن يظهرن الأرباح والفائدة الكبيرة ولكنّ النتيجة هو الخسران حتى في رأس المال الذي تريد التجارة به.

ويقول في موضع آخر:

نْوَصِّيكْ يَا حَارَثْ القَدِّيـــــــــمْ ... بَالَكْ مَنْ دُخَّانْهَا لاَ يَعْمِيـــــــكْ

لاَ تَدِّي شِي المْرَاة المَعْفُونَة ... تَتْعَاوَنْ هِيَ وَالزّْمَانْ عْلِيكْ

المعنى من البيتين هو أنّ هذا النوع من النساء فيه مضرة للأزواج فكأنها بعدم حسن تصرفها فهي بذلك تعين نوائب الزمان على زوجها من خلال طبائعها السيئة، وهناك رواية قريبة من هذا المعنى:

يَـــا شَاعَلْ الدّمَـــــــاغْ ... صَرَّفْ مَنْ دُخَّانْهَا يَعْمِيـــــكْ

بَالَكْ مَنْ المْرَا الْمَعْفُونَة ... تَتْلاَقَى هِيَ وَالزّمَانْ عْلِيكْ

ويقول في موضع آخر أيضا:

يَا الجَايْزَاتْ فَي الطّرِيقْ ... يَا مْقَوْرِينْ العْمَـــــــــايَمْ

فِي رَاسْكُمْ شِي عْنَايَـــــة ... وَالاَّ رَاتْعِينْ كَالْبْهَـــــــــايَمْ

يخاطب الشيخ في هذين البيتين النساء المارات في الطريق (الصاعدات منهن والنازلات، الداخلات والخارجات...) ويسألهن عن فهمهن للحياة، هل لهن فيها مقاصد وأهداف رفيعة أو هن يعشن عيشة لا هدف لها، ويشتغلن فقط إلا بسفاسف الأشياء وحقيرها، وقريبا من هذا المعنى ألفينا المتنبي يقول[9]

أَصِخْ مُصِيخًا لِمَنْ أَبْدَى نَصِيحَتَهُ ... وَالْزَمْ تَوَقِّي خَلْطَ الجِدّ بِاللّعِبِ

ويقول المجدوب أيضا:

مَزْيَنْ النّسَا بْضَحْكَاتْ ... لُو كَانْ فِيهَا يْدُومُـــــوا

الحُوتْ يعُومْ فِي المَـــــا ... وْهُمَا بْلاَ مَاء يعُومُوا

يقصد الشيخ على أنّ النسوة عموما لا يدمن على حالة واحدة فهم دائما في مزاج متقلب، وفي هذين البيتين إشارة إلى حذاقتهن ومهارتهن وحسن تصرفهن في شؤون الحياة ومعرفة كيف يتخلصن من المشاكل والصعوبات التي تعترضهن، وعليه فإنّ الناظر إليهن يحسبهن ضاحكات فرحات، ولكن العكس فإنهن بهذه الابتسامات يخططن لشيء يردن الوصل إليه.

ويقول أيضا:

حْدِيثْ النّسَـــــاء يْوَنَّسْ ... وْيْعَلَّمْ الفْهَامَـــــــــــه

يدِيرُوا شَرْكَـــة مْنَ الرِّيحْ ... وِيحَسْنُوا لَـــكْ بْلاَ مَـــا

فالمعنى الحاصل في هذين البيتين إجمالا أنّ النساء عموما يغلبن الرجال بكلامهن المعسول اللبق، ثم ينقادون حينذاك إلى تحقيق رغباتهن ونزواتهنّ بكل بساطة لما يتمتعن من حيل وذكاء ومكائد.

ويقول أيضا:

يَا لّي تْعَيَّطْ قُدَّامْ البَابْ ... عَيَّطْ وْكُونْ فَـــــاهَمْ

مَا يفَسَّدْ بِينْ الأحْبَابْ ... غِيرْ النْسَاء والدْرَاهَمْ

من المعلوم أنّ النساء بكلامهن والنزاع بينهن يفسدن بين الأصحاب، ذلك أنّ أزواجهن ينصتون في آخر الأمر إلى أقوالهن فيكون ذلك سببا لإيقاع الخلاف والعداوة بين الأقارب والأصدقاء، وكما يرتبط الأمر بالنساء كذلك مع المال إذا كان عن طريق القرض والسلفة فيكون له ذلك التأثير الذي رأيناه مع النساء.

ويقول أيضا:

كَيْدَ النْسَاء كَيْدَيْنْ ... وْمَنْ كِيدْهُمْ يَـــاحْزُونِي

رَاكْبَة عْلَى ظْهَرْ السّْبَعْ ... وْتْقُولْ الْحْدَاء يَاكْلُونِي

يبين لنا الشيخ من خلال هذين البيتين مهارة النساء وحيلهن، فهو يتأسف ويحزن لما يقمن به، وكأنه يشبههن بدموع التماسيح، فرغم أنها تركب ظهر الأسد الذي يحميها من كل الشرور إلا أنها تظهر خوفها من طير الحدأة الأقل قوة والأكثر ضعفا ممّا تركبه.

ويقول أيضا:

بُهْتَ النْسَاء بُهْتِينْ ... مَنْ بُهْتْهُمْ جِيتْ هَارَبْ

يَتْحَزْمُوا بِاللّفَـــــاعْ ... وُ يَتْخَلُّوا بَالْعْقَـــــــــارَبْ

من المعروف أنّ النساء بطبيعتهن معروفات بالحيلة والكيد، وكل من يحاول أن يجابههم فقد خاض حربا هو الخاسر فيها، لأنهن غالبا ما يستعملن المكر والخداع عند مواجهتهن لأية مشكلة، ونلاحظ أنّ الشيخ قد وظّف كلمتي (الأفاعي والعقارب) لما في هذه الحيوانات من القوة والشراسة عند مواجهتها لفريستها أو عدوها.

ويقول أيضا:

وَحْدَة رْخِيسَة بَمَايَةْ أَلْفْ ... وَحْدَة غَالْيَة بْجَلْدْ قْعُودْ

وَحْدَة تْجِيبْ الخِيرْ مْعَاهَا ... وَحْدَة تَطَّرْدُ بَعْمُـــــــــودْ

فالمعنى المستنتج من خلال هذين البيتين أنّ المهر (الصداق) لا يعتبر مرتفعا إذا كانت المرأة جديرة به لخصالها الحسنة، وهناك امرأة أخرى تُبْعِد الخير وتطرده لأنها لا تحسن التصرف في مال زوجها بل تبذره ولا تحافظ عليه.

ويقول أيضا:

لاَ يَعَّجْبَكْ نُوَّارْ الدَّفْلَى ... فَي الوَادْ دَايَرْ ضْلاَيَلْ

وْلاَ يَعَّجْبَكْ زِينْ الطَّفْلَة ... حَتَّى تْشُوفْ الْفْعَايَلْ

إنّ المعنى الذي قصده السيخ من البيتين أنّ الجمال وحده لا يكفي، فالمطلوب قبل كل شيء هو حسن الأفعال وصالح الأخلاق، ونلاحظه قد شبه جمال المرأة بالورد الجميل المسمى بـــ (الدفلى) وهو نبات رائع المنظر لكن ذوقه مرّ جدّا، وقريب من هذا المعنى يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" إياكم وخضراء الدمن، قيل: يار سول الله وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في منبت سوء"[10] أي: لا تختار زوجتك بعينيك بل بالمعاملة والأفعال.

ويقول أيضا:

لاَ فَي الجْبَلْ وَادْ مَعْلُومْ ... لاَ فَي الشْتَاء ريـــــحْ دَافِي

لاَ فَي الْعْدُو قَلْبْ مَرْحُومْ ... لاَ فَي النْسَاء عَهْدْ وَافِي

يصور لنا الشيخ في هذين البيتين تصويرا رائعا تناول من خلاله ثلاثة أشياء ليصل في الأخير إلى محل الشاهد، فقد بدأ بالجبل ومن المعلوم أنّ الجبال لا يوجد بها وديان معلوم أو ظاهرة وإنما هو كتلة واحدة، ليتطرق فيما بعد إلى ذكر فصل الشتاء لما فيه من البرودة المؤثرة، ثم يصور لنا حالة العدو الذي لا يوجد في قلبه رحمة، أما محل الشاهد فهو تصويره للنساء المعروفات بقلة وفائهن، ونعتقد أنّ إصداره لهذا الحكم كان اتكاؤه على الحديث القائل: (النساء ناقصات عقل ودين)، ونحن هاهنا نخالفه لأنّ النساء منهن أيضا ذات الخلق الحسن.

ويقول أيضا:

مَرْوَانْ لْقِيتَهْ يْخَـــــــــمَّمْ ... وَاصَلْ العْظَمْ فِي لْهَاتَهْ

هَذَاكْ مَنْ زَوْجَة الهَمّْ ... بَفْعَالْهَـــــا عَذْبَاتَـــــــــهْ

يصور لنا الشيخ في هذه الأبيات الحالة التي يكون عليه الرجل عندما يرزق بمرأة تنغص عليه حياته، ولا تحسن معاشرة الحياة الزوجية.

ويقول أيضا:

عَيْنِيكْ وحْوَاجْبَكْ سُودْ ... وَسْوَالْفَكْ هَنْدُولَة

يَا نَابْشَةْ الارْضْ بَالعُودْ ... اتْكَلّْـــــمِي يَاهْبِيلَة

ما يقصده الشيخ المجذوب في هذين البيتين وكأنه يقول للمرأة : أيتها المرأة الجميلة الجذابة هل لك شيء زائد على الجمال من خصال حسنة تؤهلك لأن تكوني مثل ربات المنزل ذوات الهمة ومعرفة تدبير شؤون البيت ورعاية الأولاد ومراعاة حال الزوج، لأن هذه الخصال هي المحمودة عند الناس والأبقى في الميزان في يوم المعاد.

وما يمكن ملاحظته على هذه الرباعيات نجد أنّ للمجذوب رغم أنه لم يكن من الفئة المثقفة الأكاديمية إلا أننا ألفينا في هذه الرباعيات ذلك التناص الجميل والتداخل مع التراث وخاصة الشعر منه، بل إنّ بطون الكتب (الأدب، الشعر، التاريخ) قد حفلت الكثير مما قيل في النساء، فمن ذلك مثلا قول علقمة[11]

فَإنْ تَسْأَلُونِي فِي النّسَاءِ فَإنّنِي ... بَصِيرٌ بِأدْوَاءِ النّسَاءِ طَبِيبُ

إذَا شَابَ رَأْسُ المَرْءِ أوْ قَلّ مَالُهُ ... فَلَيْسَ فِي وُدّهِنّ نَصِـيبُ

ويقول أبو العلاء المعرّي[12] **ألاَ إنّ النّسَاءَ حِبَالُ غَيٍّ ... بِهِنّ يَضِيعُ الشّرَفُ التّلِيدُ**

2/ البغضاء والشحناء:

يقول المجذوب:

اَلّي حَبَّكْ حَبَّهْ ... وْفِي مْحَبْتَهْ كُونْ صَـــــــــافِي

وَالّي كَرْهَكْ لاَ تْسَبَّهْ ... وْخَلّيهْ تَلْقَ اَلْعْوَافِي

يوضح لنا الشيخ في هذين البيتين أهمية المحبة خاصة إذا كانت متبادلة بين شخصين، أما إذا كان الحب من طرف واحد والآخر مجافٍ عنه فإنّ، فنجد الشيخ يشير إلى المعاملة بالمثل، وقريب من هذا المعنى نجد بعض الشعراء قد تناولا هذه المسألة قديما فمن ذلك مثلا قول ويقول إبراهيم نفطويه[13]

يرى الأحبابُ ضنْك العيش وُسْعا... ولا يسع البغيضين الفضاءَ

ويقول أبو الأسود الذؤلي [14]

وأبغض إذا أبغضت بغضا مقاربا ... فإنّك لا تدري متى أنت راجع

ويقول ابن غياث النجدي [15]

إنّ القلوب إذا تنافر ودّها... شِبْه الزُّجَاجَةِ كَسْرُهَا لاَ يُجْبَرُ

أمّا النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يحذرنا من هذا الفعل الشنيع المشين قائلا: "لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا"[16]

3/ التأني وعدم التّسرّع:

لاَ تَجْرِي لاَ تْهَقْهَقْ ... وَامْشِي مَشْيَــة مْوَافْقَة

مَا تَدِّي غِيرْ اَلِّي كْتَبْ لَكْ ... لُو كَانْ تْمُوتْ بَالشْقَــا

ويقول أيضا:

لاَ تْسَرَّجْ حَتَّى تْلَجَّمْ ... وَاعْقُدْ عُقْدَة صْحِيحَة

لاَ تَتْكَلَّمْ حَتَّى تْخَمَّمْ ... لاَ تْعُودْ لَكْ فْضِيــحَة

ويقول في موضع آخر:

الزَّيتْ يَخْرُجْ مْنَ الزَّيْتُونَة ... وَالفَاهَمْ يَفْهَمْ لُغَاتْ الطِّيرْ

اَلِّي مَا تَخْرُجْ كَلْمْتُهْ مِيزُونَة ... يَجْحُرْهَا فِي ضْمِيرُ خِيرْ

ما يمكن أن نستشفه في هذه الأبيات أنّ الشيخ يشير إلى مسألة التأني والتوءدة في معالجة الأمور، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالرزق أو الكلام، فعلى الإنسان أن يحتاط ويتأنّ في إصدار الأحكام وسائر أموره، يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" إذا أراد أحدكم أمرا فعليه بالتوءدة"[17]، ويقول الإمام علي:" الرفق يمنٌ والأناة سعادةٌ..فتأنّ في أمرٍ تلاق نجاحا"[18]

أمّا في الشعر قديمه وحديثه، القريب من المعنى الذي أشار إليه الشيخ، فإنّ الأبرش يقول[19]

تَأَنّ فِي أَمْرِكَ وَافْهَمْ عَنّي ... فَلَيْسَ شَيْءٌ يَعْدِلُ التّأَنّي

تَأَنّ فِيهِ ثُمّ قُلْ، فَإِنّي ... أَرْجُو لَكَ الإِرْشَادَ بِالتّـــــــــأَنّي

ويقول الشاعر القطامي[20]

وَرُبّمَا فَاتَ قَوْمًا جُلّ أَمْرِهِمْ ... مِنَ التّأَنّي وَكَانَ الحَزْمُ لَوْ عَجِلُوا

وقال عيسى بن علي [21]

إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا تَدَبّرٍ ... فَإِنّ فَسَادَ الرّأْيِ أَنْ تَتَعَجّلاَ

وقال محي الدين بن الزّكي [22]

خُذْ الأُمُورَ بِرِفْقٍ وَاتّئِدْ أَبَدًا ... إِيّــاكَ مِنْ عَجَلٍ يَدْعُو إِلَى وَصَبِ

لَلرّفْقُ أَحْسَنُ مَا تُؤتَى الأُمُورُ بِهِ ... يُصِيبُ ذُو الرّفْقَ أَوْ يَنْجُو مِنَ العَطَبِ

د/ الكسل :

يقول الشيخ:

الشَّرْ مَــا يَظْلَمْ حَدْ ... غِيرْ مَنْ جَبْـــذُه لْرَاسُ

فَي الشّتَا يْقُولْ الْبَرْدْ ... وْ فَي الصَّيْفْ يَغَّلْبُ نْعَاسُ

المعنى المستفاد هو أنّ الفقر لا يظلم أحدا من الناس، بل إنّ الإنسان يجلبه لنفسه بسبب خموله وتكاسله، ففي الشتاء يزعم أنّ البرد قد منعه من الاشتغال وتحصيل الرزق، وفي الصيف يلقي باللوم على الحر والقيظ أنّه كان مانعًا عن النهوض والحركة، وفي هذا الصدد يقول حازم القرطاجني[23]

دَعْ التّكَاسُلَ فِي الخَيْرَاتِ تَطْلُبُهَا ... فَلَيْسَ يَسْعَدُ بِالخَيْرَاتِ كَسْلاَنُ

ويقول أبو بكر الخوارزمي[24]

لاَ تَصْحَبِ الكَسْلاَنَ فِي حَاجَاتِهِ ... كَمْ صَالِحٍ لِفَسَادِ آخَرَ يَفْسَـــــــــدُ

عَدْوَى البَلِيدِ إِلَى البَلِيدِ سَرِيعَةٌ ... وَالجَمْرُ يُوضَعُ فِي الرّمَادِ فَيَخْمُدُ

ويقول الطغرائي[25]

حُبُّ السّلاَمَةِ يُثْنِي عَزْمَ صَاحِبِهِ ... عَنِ المَعَالِي وَيُغْرِي المَرْءَ بِالكَسَلِ

ويقول قيس بن الخطيم[26]

مَا فِي الخُمُولِ سِوَى الخُسْرَانُ مِنْ ثَمَنٍ ... وَكَيْفَ يَنْعَمُ مَنْ خُسْرَانُهُ ثَمَرُ

أمّا حديثا فنجد معروف الرصافي يشير إلى هذا المعنى فيقول[27]

وَشَرّ العَالَمِينَ ذَوُو خُمُولٍ ... إِذَا فَاخَرْتَهُمْ ذَكَرُوا الجُدُودَا

هـــ/ الجوع والحاجة والفقر:

يقول الشيخ:

ضْرَبْتْ كَفِّي عْلَى كَفِّي ... وْخَمَّمْتْ فِي لَرْضْ سَاعَـــــة

صُبْتْ قَلَّة الشِّي تْرَشِي ... وَتْنَوَّضْ مْنَ الجْمَاعَـــــــــــة

ويقول أيضا:

الشَّاشِيَة تَطْبَـــــعْ الرَّاسْ ... وَالوَجْهْ تَضْوِيهْ الحْسَانَـــــــة

الْمَكْسِي يَقْعُدْ مْعَ النَّاسْ ... العَرْيَانْ نَوْضُوهْ مَنْ حْدَانَا

يشير الشيخ في هاته الرباعيات إلى مسألة الفقر والعوز التي تصيب الإنسان، وهذا ما يجعله منبوذا في المجتمع، ولا أحد يراعيه أو يجالسه، وهذا من طبيعة البشر ذلك أنّ غالبية الناس تحاكي وتجالس الغني سعيا وراء ماله، أما الفقير فلا حاجتهم إليه، وقد ورد من مثل هذا القبيل في تراثنا القديم ونشير إلى بعضٍ من ذلك، يقول ابن نباتة[28]

وَمَا الفَقْرُ إلاّ لِلْمَذَلّةِ صَاحِبٌ ... وَمَا النّاسُ إلاّ لِلْغَنِيّ صَدِيـــــــــقُ

ويقول الطرماح [29]

الفَقْرُ يُزْرِي بِأَقْوَامٍ ذَوِي حَسَبٍ ... وَقَدْ يَسُودُ غَيْرَ السّيّدِ المَالُ

أما المتنبي فقد أشار هو أيضا إلى مثل هذا[30]

جَوْعَانٌ يَأْكُلُ مِنْ زَادِي وَيُمْسِكُنِي ... حَتّى يُقَالَ عَظِيمُ القَدْرِ مَقْصُودُ

و/ الحكمة والتجربة:

الشَّوَّافْ يْشُوفْ مَنْ قَاعْ القَصْعَة ... وَالْغَرْبَالْ تْشُوفْ مَنَّهْ قَاعْ النَّاسْ

الْكَيَّسْ يَعْفَسْ عْلَى رَاسْ اللَّفْعَة ... وَالْعَوَّامْ يْعُومْ بْحَرْ لاَ يَنْقَـــــاسْ

من المسائل التي أشار إليها القرآن الحكمة، لما لها من أهمية وشرف تجعل صاحبها يسمو بها في وسط الناس، بل وأكثر من ذلك فإنه قد أوتي الخير الكثير، يقول تعالى:

﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:269]، وها هو الشيخ المجذوب يتناول هذه المسألة ويصورها لنا تصويرا رائعا، ذلك أنّ البصير بالأمور ومن نظره بعيد يستخرج من الحوادث ووقائع الدهر ومن ثمّ يمرّ على الصعوبات من دون أن يلحقه أذى بل إنه يقتحمها ويخرج منها سالما غانما، ونجد من مثل هذا القول في أدبنا العربي ما يشفي الغليل، فقد كتب عن الحكمة والكياسة خلْقٌ كثير، ونقتطف من ذلك حسب المقام، يقول الشاعر القروي[31]

أَشْبِعِ العَقْلَ حِكْمَةً وَاِخْتِبَارًا... وَامْلإِ القَلْبَ رَحْمَةً وَحَنَانَاً

ويقول في موضع آخر[32]

اسْتَقِ الحِكْمَةَ لا يُشْغِلُكَ مِنْ ... أَيّ يَنْبُوعٍ جَرَتْ يَا مُسْتَقِـــــــي

فَشُعَاعُ الشّمْسِ يَمْتَصّ النّدَى ... مِنْ فَمِ الوَرْدِ وَوَحْلِ الطّرْق

أمّا من المحدثين فنجد صدقي الزهاوي يشير إلى ذلك قائلا [33]

إنّ الحَكِيمَ إِذَا مَا فِتْنَةٌ نَجَمَتْ ... هُوَ الذِي بِحِبَالِ الصَّبْرِ يَمْتَسِكُ

ز/ الدنيا:

يقول الشيخ عن الدنيا:

الدَّنْيَا يْكَنُّوهَـــــا نَاقَة ... إِذَا عَطْفَتْ بَحْلِيبْهَا تَرْوِيـــكْ

وْاذَا عَطْفَتْ مَا تْشَدْ فِيهَا لْبَاقَة ... تَتْكَفَّحْ وْلُوكَانْ فِي يَدِّيكْ

ويقول أيضا:

الدَّنْيَا مَثَّلْتْهَا دَرَّاعَة ... مَا يَلْبَسْهَا غِيرْ الِّي يَشْـطَحْ

يَلْبَسْهَا وِ يْدَوَّحْ بِهَا سَاعَة ... وِيَنْكَدْ عْلِيهَا بَعْدْ مَا يَفْرَحْ

ويقول أيضا:

الدَّنْيَا مَثَّلْتْهَـا دَلاَّعَة ... تَتْقَرْقَبْ مَا بِينْ الـــــــــــدَّلاَّعْ

ماذَا لَحْقُوهَا مَنْ طَمَّاعَة... وَرْمَاتْهُمْ فِي بِيرْ مَالُ قَاعْ

ويقول أيضا:

الدَّنْيَا مَثَّلْتْهَـــــــــــا دَلاَّعَة ... تَتْكَرْكَبْ مْعَ جْمِيـــعْ الدَّلاَّعْ

الْحَاذَقْ يَعْطِي مْعَهَا سَاعَة ... وَالْجَايَحْ غْدَا مْعَهَا قَاعْ

من كثرة ما ما جرّب الشيخ الدنيا وجد أنّها تخدع صاحبها وتأخذ به إلى الهاوية إذا لم يأخذ حذره منها، وها هو يتمثل لنا ببعض الأبيات ويصور لنا حالتها التعيسة، فالإنسان الفطن هو الذي ذاق حلاوة الدنيا ثم تذكر أنها زائلة وليس لها إقامة، ليتركها في الأخير ولم يبق منهمكا في ملذّاتها، وعليه فإنّ العاقل لا يتأسف عليها ويقنع بما أُعطي له فيها.

وقد وجدنا من كتب عن الدنيا الكثير من الشعراء والزهاد والصوفية، بل إنّ القرآن الكريم والأحاديث الشريفة يحذراننا من مغبتها وخداعها، وسنقتطف بعضا من الشعر إشارة إلى ذلك، يقول المتنبي[34]

وَمَا سَمَحَتْ لَنَا الدُّنْيَا بِشَيءْ ... سِوَى تَعْلِيلُ نَفْسٍ بِالمُحَالِ

ويقول أبو العلاء المعري[35]

أَلا إِنّمَا الدُّنْيَا عَلَى المَرْءِ فِتْنَةٌ ... عَلَى كُلّ حَالٍ أَقْبَلَتْ أَمْ تَوَلّتْ

ويقول النابغة الجعدي[36]

وَلاَ تَأْمَنُوا الدّهْرَ الخَؤُونَ فَإِنّهُ ... عَلَى كُلّ حَالٍ بِالوَرَى يَتَقَلّبُ

أما بديع الزمان الهمذاني فهو أيضا يصرح ويحذر منها قائلا[37]

إِذَا الدّنيَا تأمّلها حَكِيــمٌ ... تبيّن أنّ مَعْنَاهَا عُبُــورُ

فَبَيْنَا أَنْتَ فِي ظِلّ الأَمَانِي ... بِأَسْعَدَ حَالَةٍ إذا أَنْتَ بُورُ

وقال معاذ العقيلي[38]

وَمَنْ يَأْمَنِ الدُّنْيَا يَكُنْ مِثْلَ قَابِضٍ ... عَلَى المَاءِ خَانَتْهُ فُرُوجِ الأَصَابِعِ

أما أمير الشعراء في العصر الحديث أحمد شوقي فيحذرنا من الدنيا مشبها إياها بالأفعى قائلا[39]

أخا الدنيا أرى دنياك أفعى ... تبدّل كل آونة إهابـــــــا

فمن يغترّ بالدنيا فإنـــــي ... لبست بها فأبليت الثيابـــا

جنيت بروضها وردا وشوكا ... وذقت بكاسها شهدا وصابا

ح/ الصبر:

يقول الشيخ:

لاَ تْخَمَّمْ لاَ تْدَبَّرْ ...ل اَ تَرْفَدْ الْهَمّْ دِيمَـــــــــــة

الْفَلْكْ مَا هُو مْسَمَّرْ ... وَ لاَ الدُّنْيَا مْقِيمَة

ويقول في موضع آخر:

مَكْتُوبْ رَبِّي نْوَدِّيهْ ... وَالصّْبَرْ وَاجَـــــــــبْ عْلِينَا

وَالِّي نْحَبُّهْ نْخَلِّيهْ ... يَا نَاسْ مَا اعْتَاهَا غْبِينَة

يشير الشيخ المجذوب في هذه الرباعيات إلى أنّ الأمور لا تدوم على حال، لأنّ الدنيا لا تبقى على حال، وهي دائمة مستمرة، متقلبة، فاليوم تنغّص وغدا تفرح، وعلى الإنسان العاقل أن يكون صبورا على كلّ حال، في أفراحه وفي أطراحه، وقد وجدنا هذا المعنى مطروق في الشعر العربي قديمه وحديثه، فقد قال الشاعر أبو الطيب الرُّنْدِي[40]

واصبر إذا ما شئت إكليل الهنا ... فبغير حسن الصبر لن تتكلّلا

فإذا كرهت الصبر فاعلم أنما ... حقا كرهت بأن تكون مكلّـــــــــلا

أمّا من الشعراء المعاصرين فقد وجدنا ثلة من الشعراء قد تناولوا الصبر، مبرزين حسناته، يقول عبد الرحمن العطّار[41]

إني رأيت وفي الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محـــــــــــمودة الأثر

وقلّ من جدّ في أمر يطالبه ... فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وقال مصطفى الغلاييني [42]

اصبر على سود الليالي وادرع ... بعزيمة كالطود إن خطْبٌ نزل

فالصبر مفتاح النجاح ولم نجد ... صعبا بغير الصبر يبلغه الأمل

وقال جميل الزهاوي[43]

تمسّك بحبل الصبر في كل كربة ... فلا عسر إلا سوف يعقبه يسر

وقال جاسم بن عوف[44]

لأستسهلنّ الصّعب أو أدرك المنى ... فما انقادت الآمال إلاّ لصابر

وقال أبو الفضل الميكالي في هذا المعنى فأحسن [45]

يُصاب الفتى في أهله برزيّة ... وما بعدها منها أجلّ وأعظم

فإنْ يصطبر فيها فأجرٌ موفّر ... وإن يكُ مِجزاعا فوِزْرٌ مقدّم

الخاتمة:

أخيرا فإنّ هذه الحكم المنظومة ثروة من جملة تراثنا الأدبي العامي، ينبغي لنا الاعتناء بها والمحافظة عليها لما فيها من نصائح قيّمة لا يمكن لأحد الاستغناء عنها، وقد أهدى إلينا شيخنا المجذوب على طبق من ذهب وهي محصّلة تجارب السنين الطوال، يتقلدها الإنسان في ظرف وجيز جدّا، فرحم الله الشيخ وجزاه عنّا أحسن الجزاء.

الهوامش:

1/ وردت كلمة التجارب بكثة في الخطاب العربي المتنوع من ذلك ما ورد الشعر، ونذكر منه:

ويقول الشاعر: كلّ من يدّعي بما ليس فيه..كذّبته شواهد الامتحان

ويقول الشبراوي: لا تمدحنّ امرءًا حتى تجرّبه..ولا تذمّنّه من غير تجريب

إنّ الرجال صناديق مقفلة..وما مفاتيحها إلا التجاريـــب

2/ ينظر تعريفه: نور الدين عبد القادر، (د.ت)، القول المأثور من كلام الشيخ عبد الرحمن المجذوب، ط1، الجزائر، مط الثعالبية، ص94.

3/ ينظر: أحمد رامي (2000)، كتاب رباعيات الخيام، ط1، مصر، دار الشروق.

4/ ابن منظور محمد بن مكرم (د.)، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، القاهرة، دار المعارف، مادة (زجل).

5/ إميل بديع يعقوب (2006)، موسوعة علوم اللغة العربية، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 517/5.

6/ صفي الدين الحلي (1981)، العاطل الحالي والمرخص الغالي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 14.

7/ موسوعة علوم اللغة العربية، 519/5.

8/ نفسه، 519/5.

9/ علي الأشموني (1955)، شرح الأشموني على ألفية بن مالك، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، ط1، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 255/1.

10/ عبد الواحد الآمدي (1992)، غرر الحكم ودرر الكلم، ترتيب: عبد الحسن دهيني، ط1، بيروت، دار الهادي، ص 379.
11/ ديوان علقمة الفحل (1969)، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب، ط1، حلب، دار الكتاب العربي، 35.
12/ روحي البعلبكي (2001)، معجم روائع الحكمة والأقوال الخالدة، ط3، بيروت، دار العلم للملايين، ص215.
13/ المرجع نفسه، ص54.
14/ ديوان أبي الأسود الدؤلي (1998)، صنعة: أبي سعيد السكري، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، ط2، بيروت، دار الهلال، ص 104.
15/ معجم روائع الحكمة والأقوال الخالدة، ص54.
16/ مسلم بن الحجاج القشيري (2006)، صحيح مسلم، عناية: محمد الفاريابي، ط1، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوه، حديث رقم 2563، ص 1192.
17/ معجم روائع الحكمة والأقوال الخالدة، ص55.
18/ المرجع نفسه، ص55.
19/ المرجع نفسه، ص55.
20/ ابن هشام (1978)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، صيدا، المكتبة العصرية، 265/1.
21/ معجم روائع الحكمة والأقوال الخالدة، ص55.
22/ المرجع نفسه، ص55.
23/ المرجع نفسه، ص195.
24/ المرجع نفسه، ص195.
25/ الطغرائي (1300هـ) الديوان، ط1، القسطنطنية، مطبعة الجوائب، ص55.
26/ معجم روائع الحكمة والأقوال الخالدة، ص195.
27/ المرجع نفسه، ص195.
28/ المرجع نفسه، ص178.
29/ المرجع نفسه، ص178.
30/ المرجع نفسه، ص77.
31/ المرجع نفسه، ص93.
32/ المرجع نفسه، ص93.
33/ المرجع نفسه، ص93.
34/ المرجع نفسه، ص104.
35/ المرجع نفسه، ص104.

36/ المرجع نفسه، ص104.
37/ المرجع نفسه، ص104.
38/ المرجع نفسه، ص105.
39/ المرجع نفسه، ص105.
40/ المرجع نفسه، ص137.
41/ المرجع نفسه، ص137.
42/ المرجع نفسه، ص137.
43/ المرجع نفسه، ص137.
44/ المرجع نفسه، ص137.
45/ المرجع نفسه، ص137.